

المبحر وألوانه الثلاثة

للدكتور حامد طاهر

---

من خلال شقتي الصغيرة بالإسكندرية

أستطيع أن أشاهد من شرفتها

مقطعا محدودا من البحر ..

ولأننى من عشاق النظر إليه

دون الدخول فى عمقه

أو حتى الاقتراب من أمواجه

التي تتكسّر على الشاطئ

فإنني شديد الملاحظة لأحواله :

---

فهو تارة ..

وحين يكون الجو صحوا

والشمس مشرقة

والسحاب الأبيض الذي يشبه القطن المندوف

ينساب إلينا من ناحية أوروبا

أجد لونه أزرق ، شديد الزرقة

وأحيانا فاتحا في لون السماء من فوقه

وتلك هي أجمل اللحظات عندي

ويزداد جماله

عندما تعبره باخرة من الميعد

بطيئة ، لكنها لا تتوقف

وأتخيل ركابها القادمين إلى مصر

في غاية السعادة لرؤية موانئها

وخصوصا أضواءها في الليل

فقد سبق لى أن مررت بنفس الشعور !

---

أما اللون الثانى للبحر

فهو مثل عكارة المترع فى الدريف المصري

التي يمتزج فيها الماء بالتراب والطمى

وهو لون رمادى قاتم وكئيب

تعلوه سماء ملبّدة بالغيوم

ولما تظهر فيه الشمس ..

وفى هذا الوقت

لنا تكاد تجد طائرا يحلّق فوق الماء

ولما مركب صيد يبحث عن رزقه

أما الريح ، فصوتها يشبه

أزيز المطائرات المتقطع

والموج يعلو إلى حد الجنون

وإذا هبط فلكي يرتفع من جديد

والناس هنا يصفون هذه الحالة

بأنها : غضب البحر

وهو تعبير صادق جدا

لأنه بالفعل يكشف عن أنيابه

ويكاد يقول بصوت عال :

— أتحدى من يجرؤ على الماقتراب منى

أو يحاول اللهو على شطآنى !

وفى هذه الحالة

لنا أجد ما أفعله سوى إغلاق شرفتى

والتقوقع على ذاتى

حتى يهدأ غضب هذا العملاق

ويعود إلى صفائه .

---

ثم هناك اللون الثالث

وهو اللون المازوردي

الذي يجمع بين الأزرق والأخضر

وهذا اللون النادر لا يظهر على طول الشاطئ

وإنما في بعض الأماكن فقط

إنه اللون الذي يجعلنا

نتخيّل أنهار الجنة ..

وهو لون لا يدوم طويلا

بل إنه يبدو مثل زيارة حبيب مهاجر

ما يكاد يظهر حتى يختفى ..

ومشكلة هذا اللون العجيب

أنه يجعلنا ننتظر دائما رؤيته

فهو يملأ قلوبنا بالمشوق إليه

ثم يتركنا نحصد مرارة هذا المشوق !

---

تلك هي الألوان الثلاثة

التي يتبدى فيها المبحر

فهل يريد أن يخبرنا

أن المحال لنا يدوم لأحد ،

أو أن الإنسان مثل حال المبحر

متعدد الوجوه ،

أو أن بعض من نتعامل معهم من البشر

لهم من الوجوه

أكثر مما لدى المبحر !

---